التفسير

« تبرؤٌ من الله ورسوله إلى المشركين الذين عاهدهم
المسلمون حتى يؤمنوا ومن استجارك منهم فأجره »
الآيات (١ ــ ٦)

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

براءةٌ من الله ورسوله : هذه براءة من الله ورسوله[١] .

إلى الذين عاهدتم : إلى الذين عاهد رسول الله ﷺ من المشركين ، لأن العهود بين المسلمين والمشركين على عهد رسول الله ﷺ لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله ﷺ أو من يعقدها بأمره[٢] .

هذه الآية الكريمة أو السورة الكريمة تبرؤٌ من الله ورسوله[٣] إلى الذين عاهدتم من المشركين أيها الرسول الكريم والنبي العظيم ، وإلى الذين عاهدتم منهم أيها المؤمنون بأمر من المصطفى ﷺ وإذن منه .

ومن البين أن السورة الكريمة لا تبدأ بالبسملة خلافاً لكل سور القرآن الكريم الأخرى ، المائة والثلاث عشرة سورة ، لأن البسملة أمانٌ وهذه السورة سورة العذاب[٤] للكافرين والفضح للمنافقين ، ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين[٥] .

وهذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري[٦] حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : آخر آية نزلت : يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة[٧] وآخر سورة نزلت ، براءة[٨] وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام[٩] بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه كما قال الترمذي : حدثنا محمد بن بشّار حدثنا يحيى بن

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٤١ وتفسير ابن كثير ٢/٣٣١ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٣١ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٧ وتفسير القرطبي ٢٩٠٠ .
(٦) صحيح البخاري ٦/٨٠ .
(٧) الآية ١٧٦ من سورة النساء .
(٨) هنا ينتهي نص البخاري .
(٩) المصحف الإمام هو مصحف عثمان رضي الله عنه الذي جمع الأمة عليه بعد أن قال : يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً . الإتقان ١/٢٠٩ محمد أبو الفضل إبراهيم .

سعيد ومحمد بن أبي جعفر وابن عديّ وسهيل بن يوسف قالوا : حدثنا عوف بن أبي جميلة أخبرني يزيد الفارسي أخبرني ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني[1] وإلى براءة وهي من المئين[2] وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السَّبع الطُّول[3] ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : كان رسول ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها ، وخشيت أنها منها . وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها ، فمِنْ أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السَّبع الطُّوَل . وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنَّسائي وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرقٍ أخر[4] .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهَمَّ بالحجّ ثم ذَكَرَ أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراةً فكره مخالطتهم وبعث أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه أميراً على الحجّ تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويُعْلِمَ المشركين ألا يحجّوا بعد عامهم هذا وأن ينادي في الناس : ﴿ براءةٌ من الله ورسوله ﴾ فلما قَفَلَ أتبعه بعليّ بن أبي طالب ليكون مبلِّغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عَصَبَةً له[5] .

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

فسيحوا في الأرض : أي قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين ، آمنين

---

(١) المثاني ما ولي المئين ، لأنها ثُنِّيَتْ ، أي كانت بعدها ، فهي لها ثوان والمئون لها أوائل . وقال الفراء : هي السورة التي آيها أقل من مائة ، لأنها تُثنَّى أكثر مما يُثنَّى الطُّوَل والمئون . الإتقان ١/٢٢٠ .

(٢) سمِّيت بالمئين لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها . الإتقان ١/٢٢٠ .

(٣) الطُّوَل بضم الطاء وفتح الواو جمع الطُّولَى . والسبع الطُّوال أولها البقرة وآخرها براءة . انظر الإتقان ١/٢٢٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٣١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٣١ .

غير خائفين أحداً من المسلمين بحربٍ ولا سلبٍ ولا قتلٍ ولا أسر[١] .

تأمر الآية الكريمة المشركين أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين ، وأن يسيروا طوال هذه المدة حيث شاءوا مطمئنين ، وأن يعلموا أنهم غير معجزيه جل وعلا ، وغير فائتيه سبحانه وغير سابقيه ، وأن يعلموا كذلك أن الله تعالى مخزي الكافرين في الدنيا بأن يُغلَبوا في كل المواطن ، وفي الآخرة بأن يُحْشروا إلى جهنم وبئس المهاد .

وللعلماء آراء مختلفة في الأربعة الأشهر ، منها :

(أ) بما أن من بين الذين عاهدهم المصطفى ﷺ من كانت مدته أقل من أربعة أشهر ومن كانت مدته مطلقةً غير مقيَّدة فإن لكل من هذين الفريقين أربعة أشهر يسيحون في الأرض آمنين ، ويسيرون مطمئنين ، يؤخذون بعدها ويقتلون . وكأن الآية الكريمة تعني هذين الفريقين وكأنها تأمرهم أو تأذن لهم بأن يسيحوا في الأرض ويسيروا فيها أربعة أشهر ، وتأمرهم بأن يعلموا أنهم غير معجزي الله تعالى وغير فائتيه . وهكذا يقابل الأمير بالسَّير الأمر بالعلم بقدرة الله تعالى المطلقة التي لا يعجزها الكافرون ولا يفوتونها .

أما الذين عاهدهم المصطفى ﷺ ولهم مدة محددة تزيد على الأربعة الأشهر فهؤلاء يُوفَى لهم إلى انتهاء مدتهم وتشملهم الآية الكريمة الرابعة من السورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم يَنْقُصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم . إن الله يحب المتقين ﴾[٢] وقد علّق ابن كثير على هذا الرأي بالقول[٣] : « وهذا أحسن الأقوال وأقواها . وقد اختاره ابن جرير رحمه الله » .

(ب) الذين لهم عهدٌ عند رسول الله ﷺ مدة عهدهم أربعة أشهر تبدأ بيوم الحج الأكبر يوم النحر وتنتهي بانتهاء عشر من ربيع الآخر ، والذين لا عهد لهم مدة عهدهم خمسون يوماً تبدأ مثل الآخرين وتنتهي بانتهاء شهر محرم[٤] وهذا الرأي يأخذ في الاعتبار قوله تعالى[٥] : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ والمراد بالأشهر الحرم في هذا الرأي الأربعة الأشهر الحرم المعروفة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . والمراد

---

(١) تفسير القرطبي ٢٩٠٣ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٤٢/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٣١/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٣١/٢ .

(٤) انظر تفسير الطبري ٤٢/١٠ .

(٥) سورة التوبة ٥ وانظر تفسير الطبري ٤٢/١٠ .

بانسلاخ الأشهر الحرم انتهاء شهر محرم[1] وبهذا يكون الأجل خمسين ليلة ، وذلك عشرون من ذي الحجة والمحرم كله[2] .

(ج) يرى فريقٌ من العلماء أن المدة أربعة في حق المعاهدين وغير المعاهدين وتنتهي بانتهاء عشر من ربيع الآخر . فالبداية والنهاية واحدة للجميع[3] وقال آخرون ممن قال ابتداء الأجل لجميع المشركين وانقضاؤه كان واحداً : كان ابتداؤه يوم نزلت براءة وانقضاؤه انقضاء الأشهر الحُرُم وذلك انقضاء المحرّم[4] وبما أن سورة براءة نزلت في شوال فهذه الأربعة الأشهر شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم[5] .

وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

وأذانٌ من الله ورسوله : وإعلام من الله ورسوله[6] .

يوم الحج الأكبر : يوم النحر[7] وقال ابن جرير[8] حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا يزيد ابن زريع حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : لما

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٣١/٢ وتفسير الطبري ٤٢/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ٤٢/١٠ .
(٣) انظر تفسير الطبري ٤٤/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ٤٤/١٠ .
(٥) تفسير الطبري ٤٥/١٠ .
(٦) تفسير الطبري ٤٩/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٣٢/٢ والجلالين وصحيح البخاري ٨١/٦ .
(٧) تفسير ابن كثير ٣٣٥/٢ وتفسير الطبري ٥٠/١٠ .
(٨) تفسير الطبري ٥٢/١٠ .

كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال : أي يومٍ هذا ؟ قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال : أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟ وهذا إسناد صحيح وأصله مخرَّج في الصحيح(١) .

بينت الآية الكريمة الأولى من السورة الكريمة أن هذه السورة الكريمة براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، وهذه الآية الكريمة يعطف فيها الأذان بمعنى الإعلام على براءة وبذلك يكون المعنى : هذه براءةٌ من الله ورسوله وأذانٌ من الله(٢) إن هذا إعلام من الله تعالى وإعلان من رسول الله ﷺ إلى الناس يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، وهو اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ، أن الله سبحانه وتعالى بريءٌ من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريءٌ منهم أيضاً(٣) روى البخاري(٤) « أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذّنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنًى ألا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفَ بالبيت عريان . قال حُمَيد بن عبد الرحمن : ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذّن ببراءة . قال أبو هريرة : فأذّن معنا عليّ يوم النحر في أهل منًى ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُرْيَان » . وروى الإمام أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريءٌ من المشركين ورسوله ، ولا يحجّ هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك . قال : فكنت أنادي حتى صَحِل(٥) صوتي(٦) وفي رواية عن الشعبي : فكان إذا صَحِل ناديت(٧) بمعنى أن صوت عليّ رضي الله عنه إذا خَشُن من النداء نادى أبو هريرة حتى خشن صوته هو الآخر رضي الله عنه .

وتبين الآية الكريمة أن المشركين إن تابوا عن الشرك وآمنوا وعملوا صالحاً فهو خيرٌ لهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٥ .
(٢) انظر تفسير الطبري ١٠/٤٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٢ .
(٤) صحيح البخاري ٦/٨١ .
(٥) صَحِل الصوت بمعنى خَشُن .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٣ .

في الدنيا والآخرة ، وإن تولوا واستمروا على كفرهم وعنادهم فإن عليهم أن يعلموا أنهم غير معجزي الله تعالى وغير فائتيه جل وعلا . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يبشّر المشركين على سبيل الاستهزاء بهم بعذاب أليم في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بخزي الهزيمة وذل الأسر وهوان الشأن ، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس المصير .

والآية الكريمة الأخرى تستثني من المشركين الذين لهم عهدٌ مع رسول الله ﷺ محدد ويزيد على الأربعة الأشهر . إن على المسلمين أن يتموا إليهم عهدهم إلى أجله المحدد ومدته المعينة شريطة ألا يَنْقُص المشركون المؤمنين شيئاً من بنود العهد ومفردات الميثاق وألّا يظاهروا عليهم أحداً من أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ . وتقرر الآية الكريمة في التذييل أن الله سبحانه وتعالى يحبّ المتقين الذين يفعلون الأوامر ويجتنبون النواهي .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فإذا انسلخ الأشهر الحرم : السَّلْخ : نزع جلد الحيوان ، يقال : سَلَخْتُهُ فانسلخ . وعنه استُعير سلخت درعة نزعتها ، وسَلَخَ الشهر وانسلخ . قال تعالى : فإذا انسلخ الأشهر الحرم . وقال تعالى : نَسْلَخُ منه النهار : أي ننزع[1] والمعنى : فإذا انقضى ومضى وخرج[2] الأشهر الحرم .

الأشهر الحرم : عن ابن عباس برواية العوفي وعن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر[3] .

وخذوهم : بالأسر[4] .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني « سلخ » ٢٣٨ .
(٢) تفسير الطبري ٥٥/١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٣٦/٢ .
(٤) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣٣٦/٢ .

واحصروهم : اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم[1] .

واقعدوا لهم : بالطلب لقتلهم أو أسرهم[2] .

كل مَرْصد : المَرْصد موضع الرَّصَد . والرَّصَد الاستعداد للترقب ، يقال : رصد له وترصَّد وأرصدتُه له . قال عز وجل : وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وقوله عز وجل : إن ربك لبالمرصاد ، تنبيهاً أنه لا ملجأ ولا مهرب[3] والمعنى : واقعدوا لهم كل طريقٍ ومَرْقَب ، وهو مَفْعَل من قول القائل : رصدت فلاناً أرصده رصداً بمعنى رقبته[4] .

تقرر الآية الكريمة أن الأشهر الحرم إذا انسلخت ، وأشهر التسيير الأربعة إذا انقضت ، ابتداءً من العاشر من شهر ذي الحجة ، أي يوم الحج الأكبر والعيد الأعظم يوم النحر إلى العاشر من شهر ربيع الآخر ، وهي المدة التي سمح الشارع الحكيم بأن يأمن فيها المعاهدون لمدة تقلّ عن أربعة أشهر أو تزيد عليها زيادةً مطلقة ، أن الأشهر الحرم إذا انسلخت وأشهر التسيير الأربعة إذا انقضت ولم يُسْلِم المشركون فإن على المسلمين مجموعة من الواجبات تجاه المشركين حتى يسلموا . إن على المسلمين بعد انسلاخ أشهر التسيير الأربعة أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم وألا يقنعوا بأقل من القتل إذا تمكنوا منهم لهوان الكافرين على الله تعالى ، وأن يأخذوهم أسارى بعد أن يثخنوهم قتلاً وجرحاً ، وأن يحاصروهم في معاقلهم وحصونهم حتى يتمكنوا من قتلهم وأخذهم ، وأن يقعدوا لهم مرصد ، وأن يعترضوهم في كل طريق ، وأن يتربصوا بهم الدوائر في كل سبيل .

ويلاحظ التدرج اللطيف في حبات المعاني المراعي لسلّم درجات التمكن من الخصم مع تقديم الحالة الأقوى فالأقوى . إن قتل المشركين يمثّل أعلى درجات التمكن من الخصم ، يلي ذلك أخذهم أساري ، يلي ذلك الاتجاه إلى معاقلهم وحصارهم وإنزالهم منها ، يلي ذلك البحث عنهم في كل المظان . وهذه الحال الأخيرة عبّر عنها بالقول : ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ .

والحقيقة أن جملة قعد ، التي لها القدرة على تبيين هيئة القاعد وعلى اتجاهه من أعلى إلى أسفل ، من هيئة القيام إلى القعود ، لها القدرة في الدلالة على تصميم المؤمنين على أخذ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٦/٢ والجلالين .

(٢) تفسير الطبري ٥٦/١٠ .

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني « رصد » ١٩٦ .

(٤) تفسير الطبري ٥٦/١٠ .

الكافرين على حين غفلة منهم وعلى حين غرَّة ، مِنْ ناحيةٍ ، وعلى عدم وهن المؤمنين في ابتغاء القوم وتعقبهم ورصد حركاتهم وسكناتهم من أجل القعود لهم كل مرصد وأخذهم على غرة ، مِنْ ناحيةٍ أخرى . وينبغي أن يكون للفظ « كلّ » كبير دور في الدلالة على تصميم المؤمنين على الإزعاج الدائم للمشركين بقصد قتلهم وأسرهم .

فإن تاب المشركون إلى الله تعالى بأن آمنوا وعملوا الصالحات وفي مقدمتها إقامة الصلاة وهي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين لأن العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى وهو ساجد ، وإيتاء الزكاة وهو أهم ما يقوم به المرء تجاه أخيه الإنسان ، لأن الزكاة تتجه إلى الله تعالى مروراً بالإنسان ، فإن على المسلمين أن يخلّوا سبيل المشركين لأن الإسلام يجبّ ما قبله . وتقرر الآية الكريمة في التذييل أن الله سبحانه غفور لذنب من تاب وأناب ، رحيم حينما فتح لكم باب التوبة وأرشدكم إلى معالم دينكم .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

استجارك : استأمنك من القتل[1] .

فأجره : فأمّنه[2] .

حتى يسمع كلام الله : القرآن[3] .

ثم أبلغه فأمنه : أي موضع أمنه ، وهو دار قومه[4] وبلاده[5] وحيث يأمن منك وممّن في طاعتك حتى يلحق بداره وقومه من المشركين[6] .

ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون : لا يفقهون عن الله حجة ، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا ، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله[7] .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٥٧ وتفسير ابن كثير ٢/٣٣٧ والجلالين .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٧ والجلالين .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٥٧ وتفسير ابن كثير ٢/٣٣٧ والجلالين .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٧ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/٥٧ .
(٧) تفسير الطبري ١٠/٥٧ .

الآية الكريمة ذات علاقة بقوله تعالى في سورة البقرة[1] : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ ﴾ إن الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وكل إمام من أئمة المسلمين وكل فرد بأنه إذا أحدٌ من المشركين ـــ أو أكثر من واحد ـــ استجارك واستأمنك من القتل فأجره وأمّنه حتى يسمع كلام الله تعالى . وهكذا تتبيّن المسئولية الملقاة على عاتق كلّ إمام من أئمة المسلمين وعامّتهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريقة التي هي أحسن . فإن شرح الله صدر هذا الكافر ، بعد انقضاء العهد المضروب له ، فاعتنق دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لعباده فذّلك هو منتهى الطلب وغاية المأمول ، وإن أصر على كفره فإن عليك أيها المُجير أن تُبْلِغ ذلك المستجير المصر على كفره مأمنه ودار قومه ، وبلاده ، وموضع مأمنه .

وتبين الآية الكريمة في تذييلها أن هذه التعاليم السامية التي تؤمرون باتباعها ومنها إسماع المشرك كلام الله تعالى وإبلاغه مأمنه لأن المشركين جهّال لا يعلمون ما يجب عليهم علمه من أن الله سبحانه وتعالى إنما خلقهم من أجل أن يفردوه جل وعلا بالعبادة ، وبأن ثواب الطاعة عظيم ، وعذاب المعصية أليم .

---

(١) الآية ٢٥٦ .

« لا يرقب المشركون في المؤمنين قرابةً ولا عهداً فإن
لم يتوبوا فقاتلوهم كي يميز الخبيث منكم من الطيب »
الآيات (٧ ــ ١٦)

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

كيف يكون للمشركين عهد : أنى يكون وبأي معنًى يكون للمشركين بربّهم عهدٌ وذمّة عند الله وعند رسوله يوفَى لهم به ويتركوا من أجله آمنين يتصرّفون في البلاد . وإنما معناه لا عهد لهم وإن الواجب على المؤمنين قتلهم حيث وجدوهم(١) .

إلا الذين عاهدتم عند المسجد لحرام : هي قبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية إلى المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش فلم يكن نقضها إلا هذا الحي من قريش وبنو الديل(٢) من بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده من بني بكر إلى مدته(٣) .

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم : أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين(٤) .

لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمةً : عن ابن عباس قال : الإلّ يعني القرابة ، والذمّة العهد(٥) .

بيّن السياق من ذي قبل أن الذين لهم عهد من المشركين عند رسول الله ﷺ محدَّدٌ بأقل من أربعة أشهر أو عهدٌ مطلق فإن لهم أربعة أشهر فقط يسيرون فيها آمنين يؤخذون

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٥٨ .
(٢) الدِّيل بكسر الدال . وبنو الدّيل من بني بكر بن عبد مناة . القاموس .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٧ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/٦٠ وتفسير ابن كثير ٢/٣٣٨ والجلالين .

بعدها . أما الذين لهم عهد محدد بأكثر من أربعة أشهر فإن على المؤمنين أن يُتِمُّوا لهم عهدهم . وإن العهد الموفَى به من المؤمنين في مقابل العهد الموفى به من المشركين . ولما كان بين المصطفى ﷺ وبين المشركين عهدٌ في صلح الحديبية مدته عشر سنوات ، ولما كانت قريش قد نقضت العهد وترتّب على ذلك فتح المصطفى ﷺ مكة في شهر رمضان من سنة ثمانٍ من الهجرة[1] وبذلك نالت قريش جزاء نقضها العهد ، ولما كان بنوا الدِّيل هم وحدهم الذين شاركوا قريشاً في نقض العهد من بين قبائل[2] بني بكر بن عبد مناة التي التزمت بعهدها مع رسول الله ﷺ فكأن الحديث يتحوّل الآن إلى هذا الحي من بني بكر بن كنانة وهم بنو الدِّيل حلفاء قريش الذين نقضوا عهدهم بمعاونة قريش مع حلفاء النبي ﷺ من خزاعة[3] .

إن الآية الكريمة الأولى تسأل في إنكار : أنَّى يكون أيها المؤمنون للمشركين عهدٌ عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ إلا الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام في أثناء صلح الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة[4] فمهما يستقيموا لكم ويتمسكوا ولا ينقضوا الميثاق فاستقيموا لهم وتمسّكوا ولا تنقضوا الميثاق . إن الله سبحانه وتعالى يحب المتقين الذين يتقون عذاب الله تعالى بفعل الأوامر ، ومنها الوفاء بالعهود والاستمساك بالمواثيق ، واجتناب النواهي ، ومنها نقض العهود والمواثيق .

وما دام بنو الدِّيل قد نقضوا العهد والميثاق فلا عهد لهم عندكم ولا ميثاق بسبب عدم وفائهم بالعهد ونقضهم الميثاق .

وإن الآية الكريمة الأخرى تبدأ بما بدأت به الآية الكريمة الأولى « كيف » مع البلاغة بالحذف اكتفاءً بذكر المحذوف في الآية الكريمة الأولى : « واكتفى بكيف دليلاً على معنى الكلام لتقدم ما يراد من المعنى بها قبلها . وكذلك تفعل العرب إذا أعادت الحرف بعد مضيّ معناه استجازوا حذف الفعل كما قال الشاعر :

وخبّرتماني أنّما الموت في القُرى فكيف وهذي هضبةٌ وكثيب

فحذف الفعل بعد كيف لتقدّم ما يراد بعدها قبلها . ومعنى الكلام : فكيف يكون الموت في القرى وهذي هضبةٌ وكثيبٌ لا ينجو فيهما منه أحد »[5] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٣٨/٢ .
(٢) انظر تفسير الطبري ٥٨/١٠ و ٥٩ .
(٣) انظر تفسير الطبري ٥٩/١٠ .
(٤) انظر السيرة النبوية ٣٠٩/٢ « حلبي » و ٣٥٥/٣ « عبد الحميد » .
(٥) تفسير الطبري ٥٩/١٠ .

ومعنى الآية الكريمة : كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله وهم إن يظهروا عليكم أيها المؤمنون ويغلبوكم أيها المسلمون لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة ، ولا يراعوا فيكم قرابةً ولا عهداً . إنكم أيها المؤمنون يرضيكم المشركون بأفواههم ، ويعطونكم من أطراف ألسنتهم حلاوة ، وتأبى قلوبهم ذلك الإرضاء لكم بأفواههم ، وتشمئز نفوسهم من كلامهم الحلو لكم الذي يتجرعون غصص إخراجه لكم كما يتجرعون غصص ازدراد السمّ اضطراراً لا اختياراً . إن هذه هي طبيعة المنافق ، أن يقول غير ما يعتقد ، ويفعل غير ما يؤمن به . وتقرر الآية الكريمة في آخرها أن أولئك هم الفاسقون الخارجون عن الصراط المستقيم . وقد جاء في هذه السورة الكريمة[1] القول : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ .

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً : اعتاضوا عن اتّباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة[2] وابتاعوا بتركهم اتّباع ما احتج الله به عليهم من حججه يسيراً من العوض ، قليلاً من عرض الدنيا . وذلك أنهم فيما ذُكِرَ عنهم كانوا نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكْلَةٍ أطعمهموها أبو سفيان بن حرب[3] .

تبين أولى الآيتين الكريمتين السبب الذي من أجله نقض المشركون العهد وهو أنهم اشتروا بآيات الله تعالى البينات ومعجزاته الواضحات في القرآن الكريم وابتاعوا بها واعتاضوا ثمناً قليلاً من متاع الدنيا الرخيص ونعيمها الزائل . ولم يقف أولئك المشركون عند نقض عهدهم مع المسلمين إنما تجاوزوه إلى الصد عن سبيل الله تعالى . وتقرر الآية الكريمة أن العمل الذي قام به المشركون بعد الكفر من الصد عن سبيل الله تعالى بئس العمل الذي يستحقون عليه النار وسوء المصير وأليم العذاب .

---

(١) سورة التوبة ٦٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٨ .
(٣) تفسير الطبري ٢/٦١ .

وتؤكد الآية الكريمة الأخرى المعنى الذي قررته آية كريمة سابقة من كون المشركين لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة ، ولا يَرْعَوْن في مسلم قرابةً ولا عهداً . ولما كان الكُفْرُ اعتداءً في حد ذاته ، لأن معناه ببساطة صرف العبادة عن الحق جل وعلا الذي يستحقها وحده لا شريك له إلى من لا يستحقها ، فكيف بتخطي الكفر إلى الصد عن سبيل الله تعالى . إن الصد اعتداءٌ بعد اعتداء ، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه الآية الكريمة في التذييل : ﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ وقد قال تعالى[1] : ﴿ ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

فإخوانكم في الدين : فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به وهو الإسلام[2] .

ونفصّل الآيات لقوم يعلمون : ونبين حجج الله وأدلته على خلقه لقوم يعلمون ما بيّن لهم فنشرحها لهم مفصلّةً دون الجهّال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته[3] .

وإن نكثوا أيمانهم : وإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش عهودهم[4] ومواثيقهم[5] .

وطعنوا في دينكم : وقدحوا في دينكم الإسلام[6] وعابوه وانتقصوه . ومن ههنا أخذ قتل من سبّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص[7] .

بيّنت الآية الكريمة الخامسة من السورة الكريمة أن المشركين إن تابوا عن الشرك وآمنوا

---

(١) سورة البقرة ٢٢٩ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٦١ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٦١ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٦٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٨ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/٦٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٩ .

وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإن على المسلمين أن يخلّوا سبيلهم كي يمارسوا حياتهم العادية باعتبارهم مؤمنين . وإن الآية الكريمة الأولى هنا تتجاوز هذا المستوى الذي ارتفع إليه هؤلاء الذين آمنوا وقدّموا الدليل العملي على إيمانهم إلى مستوًى أرفع حينما تقرر أن هؤلاء الذين تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة هم إخوة للمؤمنين في الدين وفي الإيمان تمشياً مع قوله تعالى[1] : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

وفي التذييل تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يفصّل آيات الكتاب الحكيم ويبين معانيها السامية ومراميها القصية لقوم يعلمون ما يقال لهم ويدركون أبعاده ويعملون به ويتمشون بموجبه . وكما أضاف صدر الآية الكريمة الجديد من المعاني إلى صدر الآية الكريمة الخامسة التي تتحدث في المعنى ذاته أضاف عجز الآية الكريمة الجديد من المعاني إلى عجز الآية الكريمة السادسة . قال تعالى : ﴿ وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ إننا هناك بصدد تقرير عدم علم هؤلاء المشركين وتعريض بجهلهم ، بينما نحن في الآية الكريمة التي نحن بصددها أمام ثناءٍ على العلم والعلماء وحث على طلب العلم النافع والحرص عليه .

ولما كان المشركون أمام مفترق طريقين : التوبة إلى الله تعالى ، وقد تحدثت عن هذا الفريق الآية الكريمة الأولى ، أو الاستمرار في الضلال والكفر ونقض العهود والمواثيق ، وقد تحدثت عن هذا الفريق الآية الكريمة الأخرى ..

إن الآية الكريمة تقرر أن أولئك المشركين إن هم نقضوا أيمانهم ، ونكثوا عهودهم ، من بعد تعهدهم بالوفاء بالعهد ، والالتزام بالميثاق[2] وطعنوا في دينكم وعابوا دين الإسلام ولمزوه فإن عليكم أيها المؤمنون أن تقاتلوا أئمة الكفر ، وأن تقطعوا رءوس الشر ، وأن تذلوا معاطس قوى البغي . إنهم لا أيمان لهم ولا عهود ولا مواثيق لعلهم ينتهون عن نقضهم العهود ، ويكفّون عن الكيد للإسلام ، ويقلعون عن الصدّ عن سبيل الله تعالى ، حينما يستحر القتل فيهم ، ويدركون أنهم ليس أمامهم وأمام سائر مشركي جزيرة العرب سوى الإيمان أو السيف . إن جزيرة العرب مهد الإسلام فعلى كل سكانها من العرب ، وهم مادة الإسلام الأولى ، أن يتحولوا مسلمين لله رب العالمين . والمعروف أن ذلك أخيراً قد كان . ولله وحده لا شريك له الحمد والمنة .

---

(١) سورة الحجرات ١٠ .

(٢) انظر هنا أسباب النزول للواحدي النّيسابوري ٢٧٨ .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ
ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ
فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

في سبيل حث المؤمنين على قتال الكافرين ناقضي العهود ، وإغرائهم بحرب المشركين ناكثي المواثيق تجيء « ألا » التي تفيد التحضيض في أول الآية الكريمة الأولى . إن على المؤمنين أن يقاتلوا المشركين ، القوم الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم فساعدوا حلفاءهم بني بكر ضد خزاعة حلفاء المصطفى ﷺ في صلح الحديبية وقتلوهم في الحرم ، وهمّوا قبل ذلك بإخراج الرسول ﷺ من مكة المكرمة ومكروا به عليه الصلاة والسلام وقرروا أن يثبتوه بمعنى أن يأسروه ، أو يقتلوه ، أو يخرجوه من مكة . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة من سورة الأنفال[1] قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين ﴾ فأذن الله تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة . والآية الكريمة تقرر أن المشركين هم الذين بدءوا المؤمنين بالقتال في بدر أو بالغدر ونقض العهود وقتالهم حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة[2] وفي أسلوب الاستفهام تنكر الآية الكريمة على المؤمنين أن يخشوا المشركين ويخافوا قتالهم فالله سبحانه وتعالى أحق أن يخشوه جل وعلا ويخافوا عذابه عز وجل . إن الذين يخشون الله تعالى وحده لا شريك له هم المؤمنون حقاً المتقون صدقاً .

والآيتان الكريمتان التاليتان تبينان ثمرة قتال المسلمين للمشركين ناقضي العهود والمواثيق . إن المؤمنين حينما يقاتلون المشركين امتثالاً لأوامر الله تعالى سوف يعذّب الله تعالى المشركين بأيدي المؤمنين، ويخزي الكافرين بالهزيمة والأسر والقتل والجراح ، وينصر جل وعلا

---

(١) الآية ٣٠ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٦٣/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٣٩/٢ .

المؤمنين ، ويشفي صدور المؤمنين عموماً ، خزاعة خصوصاً ، مما تجد فيها من حرقةٍ وألم ، ويذهب جل وعلا غيظ قلوبهم وحقد صدورهم .

ويفتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة للجميع . إن على المؤمنين أن يتوبوا إلى الله تعالى جميعاً لعلهم يفلحون . ومما ينبغي على المؤمنين أن يتوبوا إلى الله تعالى بشأنه تقصيرهم وقتاً من الأوقات في جنب الله تعالى في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى . وإن على غير المؤمنين أن يتوبوا إلى الله تعالى من كفرهم وشركهم ونقضهم العهود وصدهم عن سبيل الله تعالى . إن الله تعالى هو العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء الحكيم في أقواله وأفعاله وفي كل شيء .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أم : حرف بمعنى بل والهمزة أي للإضراب الانتقاليّ والاستفهام الإنكاري[1] .

وليجة : هو الشيء يدخل في آخر غيره . يقال منه : ولج فلانٌ في كذا يلجه فهو وليجة . وإنما عنى بها في هذا الموضع البطانة من المشركين[2] والدخيلة[3] .

في أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة المؤمنين الذين ظنّوا أن المؤمنين لا يختبرهم الله تعالى ولا يبتليهم : بل أحسبتم أيها المؤمنون أن تُتْركوا دون اختبار ودون تمحيص ولمّا يعلم الله سبحانه وتعالى علم ظهور عن طريق الابتلاء والامتحان الذين جاهدوا منكم وأبلو بلاءً حسناً ، ولم يتخذوا من دون الله تعالى ولا رسوله محمد ﷺ ولا المؤمنين وليجة وبطانة يطلعون أولئك الكافرين على أسرارهم ويوقفونهم على عوراتهم . إن الله سبحانه وتعالى خبير بما تعملون أيها المؤمنون وقد أحاط جل وعلا علماً بباطن الأمور كظاهرها فلا يخفى عليه جل وعلا شيء في الأرض ولا في السماء .

ومن البين أن الحديث اكتفى بالذين لم يتخذوا من المشركين بطانة وهم المؤمنون ، عن الذين اتّخذوا وهم المنافقون . ويتحول الحديث إلى المشركين .

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٢٥٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/٦٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٠ .

« ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله إنما يعمرها المؤمنون ولا تستوي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالإيمان والجهاد في سبيل الله »

الآيات (١٧ ــ ٢٢)

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ما كان للمشركين : ما ينبغي للمشركين[1] .

شاهدين على أنفسهم بالكفر : قال السدي : لو سألت النصراني ما دينك ؟ لقال : نصراني . ولو سألت اليهودي ما دينك ؟ لقال : يهودي . والصَّابئ لقال : صابئ . والمشرك لقال : مشرك[2] لم يكن ليقوله أحدٌ إلا العرب[3] .

أولئك حبطت أعمالهم : بطلت وذهبت أجورها لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان[4] .

فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين : كلّ عسى في القرآن فهي واجبة . وقال محمد ابن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق[5] .

سبب النزول :

قال المفسرون لما أُسِرَ العباس يوم بدرٍ أقبل عليه المسلمون فعيَّروه بكفره بالله وقطيعته الرحم ، وأغلظ عليٌّ له القول : فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا ؟ فقال له عليّ : ألكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحاج ، ونفكّ العاني . فأنزل الله عز وجل رداً على العباس : ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله . الآية[1] .

تقرر الآية الكريمة الأولى أنه ما ينبغي لكفار مكة وما يصح للمشركين أن يعمروا

---

(١) تفسير الطبري ٦٦/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٤٠/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٠/٢ وتفسير الطبري ٦٦/١٠ .
(٣) تفسير الطبري ٦٦/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ٦٦/١٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣٤١/٢ .
(٦) أسباب النزول ٢٧٨ .

مساجد الله تعالى ويبنوها ابتداءً بالمسجد الحرام شاهدين على أنفسهم بالكفر بحيث إن المشرك من العرب حينما يسأل عن دينه يجيب بأنه مشرك . هذه هي الشهادة على النفس بالكفر . إن أولئك بطلت أعمالهم الطيبة التي قاموا بها وإن كانت طيبة وصالحة في نظر الإسلام كعمارة المسجد الحرام ، وحجابة الكعبة المشرفة ، وسقاية الحجيج ، وفكّ الأسرى ، وإكرام الضيف ، وإغاثة الملهوف ، ورعاية حقوق الجار ، وما إلى ذلك . إن تلك الأعمال الطيبة والصالحة فقدت الشرط الآخر الذي ينبغي وجوده بين يدي تفضل الحق جل وعلا بقبول الأعمال الصالحة .. أما ذلك الشرط الآخر المفقود فهو أن يراد بتلك الأعمال الصالحة بمقياس الإسلام وجه الله تعالى وحده لا شريك له وليس الرياء والسمعة وحسن الأحدوثة . إن تلك الأعمال الصالحة قد بطلت وذهبت هباءً بسبب قيام المشركين بها من أجل حسن الأحدوثة الذي حصلوا عليه ثمناً لها . ووراء بطلان أعمالهم الصالحة هم في النار خالدون لأنهم ارتكبوا الذنب الذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جل وعلا سواه .

والآية الكريمة الأخرى تقصر عمارة المساجد على المؤمنين وتحصرها في المسلمين الذين يؤمنون بالله تعالى ربًّا ويؤمنون باليوم الآخر ، يوم القيامة المجموع له الناس المشهود ، الذي يثاب فيه الطائع ويعاقب العاصي ، ويعملون من أجل ذلك اليوم العظيم . وهكذا يتبين أن الإيمان حينما يصح أولاً ، أعني الإيمان بالله تعالى ، وحينما يصح آخراً ، أعني الإيمان باليوم الآخر ، يصح الإيمان بينهما على نحو تبيين الحديث النبوي الشريف أركان الإيمان ، بأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى . وكما اختارت الآية الكريمة ركنين من أركان الإيمان مهمين ، اختارت ركنين من أركان الإسلام مهمين : إقامة الصلاة ، التي هي أكبر عبادات البدن[1] وإيتاء الزكاة باعتبار الزكاة أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخالق[2] وتختم الآية الكريمة اختيارها بصفة الخشية من الله تعالى وحده لا شريك له ، لأن خشية الله تعالى تحول بإذن الله تعالى بين الإنسان وبين ارتكاب الذنوب . وهكذا يتبين دور الخشية التي تملأ القلب في إكمال الإيمان .

وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن من تحققت فيهم تلك الصفات الحسنة الدالة على ما وراءها من صفات حسنة عسى أن يكونوا بإذن الله تعالى من المهتدين إلى طريق النجاح والفلاح . والمعروف أن عسى من الله تعالى إيجاب . وبهذا يتبين يقيناً الطريق المؤدي إلى الهداية بإذن الله تعالى وتوفيقه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٤١ .

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ
وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

سبب النزول :

روى مسلمٌ في صحيحه أن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل : ما أبالي ألّا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاج . وقال الآخر : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد أن أَعْمُرَ المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ — وهو يوم الجمعة — ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه . ففعل ، فأنزل الله تعالى : أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام .. إلى قوله تعالى : والله لا يهدي القوم الظالمين[1] .

تسأل الآية الكريمة الأولى في أسلوب الاستفهام الإنكاري الذين جعلوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ماديًّا كمن آمن بالله تعالى وباليوم الآخر وجاهد في سبيل الله تعالى . إن الآية الكريمة تبين أن الفريقين لا يستوون عند الله تعالى لأن الفريق الأول أشرك مع الله تعالى سواه فحبط عمله الصالح وبقي عمله الطالح الذي يعتبر الشرك أسوأه ، ولأن الفريق الآخر أفرد الله تعالى بالعبادة وقام بما قام به الفريق الأول وفوق ما قام به الفريق الأول . إن الفريق الأول إذا كان قد عمر المسجد الحرام ماديًّا فإنّ الفريق الآخر قد عمر المساجد ماديًّا ومعنويًّا ، هذا بالإضافة إلى أنه آمن بالله تعالى وآمن باليوم الآخر وآمن ببقية أركان الإيمان ، ثم إنه جاهد بماله ونفسه في سبيل الله تعالى . ويشترك في هذه الصفات المهاجرون والأنصار . فكيف

---

(١) أسباب النزول ٢٧٩ وانظر تخريج الحديث في تفسير ابن كثير ٢/٣٤٢ .

يصحّ أن يُسَوَّى بين الفريقين . وحينما يصرّ الزاعمون بالمساواة على زعمهم يكون في ذلك الدليل على أن الله سبحانه وتعالى لم يهدهم سبل الرشاد بسبب ظلمهم ووضعهم العبادة في غير موضعها وتوجيهها إلى غير مستحقيها .

والآية الكريمة التالية تبين أفضلية الفريق الآخر وتقررها بصريح اللفظ وتعين أسبابها وتخص المهاجرين بالذكر بسبب فضلهم من ناحية ولأنهم طرف في الحوار الذي كان سبباً للنزول . إن الآية الكريمة تنص على الإيمان بالله تعالى رباً باعتباره القاعدة الأساسية لكل خير ، وعلى الهجرة ، وما أعظم فضل المهاجرين ، للدرجة التي يقدَّمون معها في القرآن الكريم على الأنصار في الذكر دائماً ، وعلى الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفيس لدور المال العظيم في إعداد القوة وإيصال الرجال إلى ميادين القتال ، وبالروح والنفس ، وليس وراء هذا النوع من الجود جود .

إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم أعظم درجة عند الله تعالى من الذين سقوا الحاج وبنوا المسجد الحرام وظلوا مشركين . وإن هؤلاء هم الفائزون حقاً الناجحون في الامتحان الأعظم صدقاً .

والآية الكريمة الثالثة تنص على ثواب هؤلاء العظيم عند الله تعالى . إن ربهم جل وعلا يبشرهم برحمة منه خاصة بهم وقد قال تعالى في حق المؤمنين في سورة الأحزاب[1] : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ كما يبشرهم جل وعلا برضوان منه تعالى لا سخط بعده . عن جابر بن عبد الله قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله سبحانه : أعطيكم أفضل من هذا ، فيقولون : ربَّنا ، أي شيء أفضل من هذا ؟ قال : رضواني[2] كما يبشرهم جل وعلا بدخول جنات عدن وخلودهم فيها ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يحول ولا يزول .

وانظر إلى لفظ الرَّبّ في القول : ﴿ يبشرهم ربهم ﴾ الحبيب إلى كل نفس مؤمنة ، والذي يجيء في القرآن الكريم في مواقف الخصوص ، وقد عمّقه لصوق الضمير العائد إلى المؤمنين به ، وفي مواقف الرضا والبهجة والحبور .

وإذا كان ذكر الجنات يعني الخلود ضمناً فإن الآية الكريمة التالية تنص على هذا الخلود الأبدي ، والبقاء السرمدي ، وتبين أن هذا الفضل العظيم إنما هو من الله تعالى الذي عنده وحده دون سواه الفضل العظيم والخير العميم والنعيم المقيم لا رب غيره ولا معبود بحق سواه .

---

(١) الآية ٤٣ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/٦٩ .

« لا تتخذوا الكافرين أولياء وجاهدوا في سبيل الله الذي
نصركم في مواطن كثيرة وثبّت رسوله في حنين
ونصركم وتوبوا إلى الله »
الآيات (٢٣ ــ ٢٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

تنادي الآية الكريمة الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً ، وتنهاهم عن اتخاذ الكافرين الذين استحبوا الكفر على الإيمان وآثروا الشرك على التوحيد ، من الآباء والإخوان ومن إليهم ، أولياء ونصراء وبطانة ، يوالونهم من دون المؤمنين ، ويتخذونهم مواطن سرهم ، ويطلعونهم على عوراتهم . إن من يتولى الكافرين من المؤمنين ومن يتَّخذهم نصراءه وبطانته فأولئك هم الظالمون حقاً الذين يستحقون عذاب الله تعالى . وقد جاء في هذا المعنى قوله عز من قائل في سورة المجادلة[1] : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وأموال اقترفتموها : اكتسبتموها[2] وأصبتموها[3] وحصَّلتموها[4] .

---

(١) الآية ٢٢ .
(٢) تفسير الطبري ٦٩/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٤٢/٢ .
(٣) تفسير الطبري ٧٠/١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٢/٢ .

فتربصوا : أي فانتظروا ماذا يحلّ بكم من عقابه ونكاله بكم[1] .

في سبيل الحث على الهجرة امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله تعالى تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المؤمنين الذين شدّهم لأرض الكفر حبهم لأقاربهم ، والذين حال بينهم وبين الهجرة تعلّقهم بديارهم ، وحرصهم على أموالهم ، وخوفهم على تجاراتهم ، وتشبثهم بمساكنهم ، أن يقول لأولئك : هل هذه الأمور العارضة والمنافع العاجلة والمتع الرخيصة أحب إليكم من الله تعالى موجدكم من العدم ، ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ الذي أرسله الله تعالى بالدين القيِّم لإخراجكم من الظلمات إلى النور ، وجهاد في سبيل الله جل وعلا بالنفس والنفيس !

إن الجواب إن كان ــ لا سمح الله ــ بالإيجاب فتربَّصوا أيها المؤمنون عذاب الله تعالى بكم ونقمته عليكم في هيئة الذِّل الذي سيكون من نصيبكم وسوم الكافرين الخسف لكم حتى يأتي الله تعالى بأمره بفتح مكة المبين ونصر القوم المؤمنين الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين الذين لا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم .

وفي التذييل : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ تنبيه أولئك الذين آثروا العاجلة على الآجلة فتقاعسوا عن الهجرة وعن الجهاد في سبيل الله تعالى بأن لهم حظَّهم الموفور من الفسق ، وهو بمعنى الخروج عن الصراط المستقيم .

ونستطيع أن نتبين العلاقة بين الآية الكريمة وبين هذه الآيات الكريمات من سورة النساء[2] قال تعالى : ﴿ إن الذين توفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم . وكان الله عفوًّا غفوراً . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

ومما يلفت النظر في الآية الكريمة ترتيبها المعجز لحبات عقد المعاني بحيث إنَّا ليروعنا هذا الترتيب الذي يملأ كل عين بهجة وكل أذن حكمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٢ .

(٢) الآيات ٩٧ ــ ١٠٠ .

إن السيـــاق ينص على الآباء ابتـــداءً لأنهم بإذن الله تعـــالى هم السبب في وجـــود المخاطبين ، يلي ذلك الحديث عن الأبناء الذين هم امتدادٌ للمخاطبين . والآباء يشملون كل من علا . والأبناء يشملون كل من سفل . وهكذا يتحقق طول السلسلة نسباً ، ثم يتحقق عرض السلسلة بذكر الإخوة . ولا يوجد من يتقدم الإخوة في سلسلة النسب عرضاً كما لا يوجد من يتقدم الآباء فالأبناء في سلسلة النسب طولاً . ولا يقف السياق عند غير الإخوان لأن في ذكر الإخوان ، رأس سلسلة النسب عرضاً ، ذكراً ضمنياً لبقية عناصر السلسلة ، على النحو الذي أومأت إليه مثلاً هذه الآية الكريمة من سورة النور[1] قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمَّهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم . ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً . فإذا دخلتم بيوتاً فسلِّموا على أنفسكم تحيَّةً من عند الله مباركةً طيبةً . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

وبعد الإيماء إلى رأسي سلسلة النسب طولاً ورأس سلسلة النسب عرضاً يتم التحول إلى سلسلة النسب صهراً مع الاكتفاء برأسها أعني الأزواج ، يلي ذلك التحول إلى الدائرة الأكبر مع الاكتفاء بالعشيرة عما تلاها في الكبر من القبيلة مثلاً أو المجتمع . يلي ذلك التحول إلى الأموال الثابتة في اليد ، فالأموال التي بعضها في اليد وبعضها الآخر خارج اليد فهي متحركة أعني التجارة . وبقصد التنبيه إلى ثبات الأموال وكونها في اليد ، وبالتالي هي أولى في تقديم ذكرها على الأموال المتحركة جاء في شأن الأموال القول : ﴿ وأموال اقترفتموها ﴾ فهي أموالٌ مكتسبة فعلاً ، وجاء في شأن الأموال المتحركة أعني التجارة القول : ﴿ وتجارة تخشون كسادها ﴾ والكساد بمعنى البوار . والمعروف أن الخشية مزيجٌ من الخوف والحب . إن التجارة يقترن بها الخوف من الخسارة وبخاصة فيما يتعلق برأس المال ، وحبّ الربح وزيادة الكسب . إن هذه المشاعر المختلفة تتجاذب التاجر بشدة في أوقات الشدة والأزمات .

ويختم السياق بالحديث عن المساكن التي رضيها المخاطبون والتي يجدون فيها سكنهم وهدوءهم واطمئنانهم . ومع أن السكن جزء من المال ويصح أن يكون جزءاً من التجارة إلا أن الغالب على المنزل الذي يتخذه الإنسان سكناً له أن يكون من نوع المال الجامد غير الخاضع

---

(١) الآية ٦١ .

للحركة المقيدة خضوع النقدين مثلاً ، وغير الخاضع للحركة المطلقة خضوع التجارة مثلاً . إن المساكن أقرب إلى كونها مالاً جامداً أو مجمَّداً . وصفة الجمود تتأخر عن صفة الحركة المطلقة التي تتسم بها التجارة الخاضعة للربح والخسارة ، وصفة الحركة المقيدة التي يتسم بها المال على النحو الذي بيَّنَّا .

ولعل فيما سبق تبييناً لبعض مظاهر إعجاز ترتيب هذه الحبَّات من عقد معاني الآية الكريمة . والله ولي التوفيق .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ
أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ
جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

لقد نصركم الله في مواطن كثيرة : لقد نصركم الله أيها المؤمنون في أماكن حرب توطّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة(١) .

ويوم حنين : واذكر يوم حنين(٢) وفي يوم حنين أيضاً قد نصركم . وحنين وادٍ فيما ذكر بين مكة والطائف . وأُجري(٣) لأنه مذكَّر اسم لمذكر . وقد يُترك إجراؤه ويراد به أن يجعل اسماً للبلدة التي هو بها . ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيّهم وشدّوا أزره ... بِحُنَيْنَ يوم تواكل الأبطال(٤)

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٢) الجلالين .
(٣) بمعنى صُرِف فنوّن لأن الممنوع من الصرف لا يُجْرَى أي لا ينوّن .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .

عن هشام بن عروة عن عروة[1] قال : حنين وادٍ إلى جنب ذي المجاز[2] عن قتادة : وحنين ما بين مكة والطائف قاتل عليها نبي الله هوازن وثقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف أخو بني نصر وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي[3] .

إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً : روي أن النبي ﷺ قال ذلك اليوم : لن نغلب من قلة . وقيل : قال ذلك رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ وهو قول الله : إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً[4] .

وضاقت عليكم الأرض بما رحبت : وضاقتْ الأرض بسعتها عليكم . والباء ههنا في معنى في ومعناه : وضاقت عليكم الأرض في رحبها وبرحبها . يقال منه : مكان رحيب أي واسع . وإنما سميت الرحاب رحاباً لسعتها[5] .

ثم وليتم مدبرين : ثم وليتم مدبرين عن عدوكم منهزمين[6] وذكر أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفاً . عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وألفان من الطلقاء[7] وكان عدد الكفار أربعة آلاف[8] وكانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمانٍ من الهجرة وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهّدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النصري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع[9] من بني هلال وهم قليل ، وناسٌ من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنَّعم ، وجاءوا بقضّهم وقضيضهم[10] فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين . فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ،

---

(١) المراد عروة بن الزبير .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٧) تفسير الطبري ١٠/٧٠ .
(٨) الجلالين .
(٩) أوزاع : جماعات ، ولا واحد لها .
(١٠) القضّ والقضض : صغار الحصى وما تفتّت منه . ويقال جاءوا بقضهم وقضيضهم أي جميعهم .

فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا من الوادي وقد كمنت فيه هوازن . فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل . وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذٍ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذٌ بركابها الأيسر ، يثقّلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوّه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : إليّ عباد الله إليّ أنا رسول الله ، ويقول في تلك الحال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريبٌ من مائة . ومنهم من قال ثمانون . فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعليّ والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم . ثم أمر ﷺ عمّه العبّاس وكان جهير الصوت أن ينادي بهم يا أصحاب الشّجرة ، يعني شجرة بيعة الرّضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألّا يفروا عنه . فجعل ينادي يا أصحاب السَّمُرة[1] ويقول تارةً يا أصحاب سورة البقرة . فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ . فلما اجتمعت شِرْذِمة[2] منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضةً من التراب بعدما دعا ربه واستنصره وقال : اللهم أنجز لي ما وعدتني . ثم رمى القوم بها ، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال . ثم انهزموا فاتّبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون . وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ[3] وكانت دعوة العباس أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخراً بالخزرج ، وكانوا صبراء عند الحرب . وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال : الآن حمي الوطيس[4] وحينما رمى النبي ﷺ

---

(١) السَّمُرة واحد السَّمُر شجرٌ من العِضاه وليس في العضاه أجود خشباً منه . والعضاه بكسر العين كل شجر يعظم وله شوك الواحدة عِضاهة وعِضة .

(٢) الشّرذمة بكسر الشين والذّال : الجماعة القليلة من الناس والجمع شراذِم وشراذيم .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٣/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٤٤/٢ والوطيس التّنور وما أشبهه واستعير للمعركة .

المشركين بكفٍّ من تراب قال : شاهت الوجوه[1] وعن رجل من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب محمد ﷺ لم يقفوا لنا ولم يقوموا لنا حلب شاة . قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في أدبارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ . قال : فتلقّانا عنده رجال بيضٌ حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا . قال : فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إيَّاها[2] وسُئل واحدٌ من المشركين في حنين عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين ، وكنية هذا الرجل أبو حاجز ، وكان أبو حاجز مع المشركين يوم حنين : فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن ثم يقول : كان في أجوافنا مثل هذا[3] .

ثم أنزل الله سكينته : السكينة الأَمَنة والطمأنينة[4] والثبات[5] .

وأنزل جنوداً لم تروها : هي الملائكة[6] .

بعد أن حثَّ السياق الذين آمنوا على الجهاد في سبيل الله تعالى إثر الحثّ على الهجرة بيَّن لهؤلاء المؤمنين أن النصر إنما هو من عند الله تعالى أولاً وآخراً وأن من ينصره الله تعالى فلا غالب له وأن من يخذله فلا ناصر له . فعلى المؤمنين أن يستعينوا بالله تعالى وأن يتوكلوا عليه جل وعلا وحده لا شريك له ، وأن يأخذوا للأمر عدته وأن يبذلوا منتهى طاقتهم وقدرتهم في إعداد القوة التي يقاتلون بها عدو الله تعالى وعدوهم . إن الله سبحانه وتعالى شاء أن ينصر من ينصره جل وعلا . وللنصر مقومان اثنان بإذن الله تعالى التوكل على الله تعالى دائماً وأبداً ، وإعداد القوة التي يستطيع المؤمنون إعدادها بعون الله تعالى . وإن رب العزة قد نصر المؤمنين في فجر الإسلام بقيادة المصطفى ﷺ في مواطن كثيرة وفي معارك عديدة حينما تحقق هذان الشرطان بعون الله تعالى . ومع أن المصطفى ﷺ كان قائد المؤمنين في غزوة حنين فإن المؤمنين حينما غرت القوة بعضهم وأخذته الغفلة عن الاستعانة المطلقة بالذات العلية والتوكل التام عليه جل وعلا حلَّت الهزيمة بهم في حنين رغم كثرة عددهم وعدتهم إلى عدد المشركين وعدتهم فقد كانوا اثني عشر ألفاً بينما كان المشركون أربعة آلاف فقط ، بل إن المسلمين الذين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٤ وانظر تفسير الطبري ١٠/٧٣ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٧٣ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٧٣ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٧٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٥ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/٧٤ .

فاجأهم الأعداء قبل أن يسفر الصبح من كمين أعدّوه لهم لم يقفوا للمشركين فترة حلب شاة . والمعروف أن حلب الشاة لا يستغرق بضع دقائق . والحقيقة أننا أمام درس قرآني عظيم في الجهاد في سبيل الله تعالى . إن واجب المؤمنين أن يذكروه جل وعلا ذكراً كثيراً وأن يسبِّحوه تعالى بكرةً وأصيلاً وألا يغفلوا عن الأعداء طرفة عين ، ولا نملك في هذه المناسبة إلا استذكار صلاة الخوف التي وصفها القرآن الكريم ، وحدها دون سواها من الصلوات ، وصفاً كاملاً ودقيقاً وذلك في الآية الكريمة الثانية بعد المائة من سورة النساء .

وإن الآية الكريمة الأولى هنا تشير إلى نصرٍ الله تعالى المؤمنين في مواطن كثيرة ومعارك عديدة . وانظر إلى لفظ « كثيرة » ودورها في التنبيه إلى فضل الله تعالى العظيم على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين . وتأمر الآية الكريمة بعد ذلك المؤمنين أن يذكروا يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم وخدعتهم عدتهم وغرتهم قوتهم فقصّروا في جنب الله تعالى وأخلوا بشرط الاستعانة المطلقة والتوكل المطلق على الله تعالى وحده لا شريك له ، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم تنفعهم كثرة عُدَدِهم ، وضاقت عليهم الأرض رغم رحابتها وسعتها ، لأن المشركين سدوا عليهم المنافذ وضيّقوا عليهم الخناق ، فلم يكن أمام المسلمين سوى أن يولّوا المشركين الأدبار منهزمين .

والآية الكريمة التالية تقرر أن الله سبحانه وتعالى أنزل سكينته وطمأنينته على رسوله وحبيبه ﷺ وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً وملائكةً لم يرها المؤمنون ، وعذب جل وعلا الكافرين . وذلك العذاب هو جزاء الكافرين في كل زمان ومكان .

وينبغي أن يكون لدور حرف العطف « ثم » الذي يدل على الترتيب مع التراخي دوره في العناء النفسي الذي قاسى منه المؤمنون حتى أنزل الله تعالى عليهم الملائكة وجاءهم النصر .

والآية الكريمة الثالثة تفتح باب التوبة واسعاً لمن عاد إلى الله تعالى وتاب توبةً نصوحاً وآمن وعمل صالحاً ومن هؤلاء الكافرون الذين فعلوا بالمؤمنين في حنين ما فعلوا أول المعركة حتى دارت الدائرة عليهم . إن الله سبحانه وتعالى يتوب على من شاء ويقبل توبة من شاء أن يقبل توبته . والله سبحانه وتعالى هو الغفور لمن استغفره جل وعلا الرحيم الذي أرشدكم لمعالم دينه وأراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر .

« لا يقرب المشركون المسجد الحرام وقاتلوا مشركي
أهل الكتاب الذين يريدون القضاء على دين الإسلام
الذي سيظهره الله على الدِّين كله »
الآيات (٢٨ ــ ٣٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

إنما المشركون نجس : النجاسة القذارة وذلك ضربان . ضرب يُدْرَك بالحاسة ، وضربٌ يدرك بالبصيرة . والثاني وصف الله تعالى به المشركين فقال : إنما المشركون نجس[1] .

فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا : يعني بعد العام الذي نادى فيه عليّ رحمة الله عليه ببراءة وذلك عام حج بالناس أبو بكر وهي سنة تسع من الهجرة[2] .

وإن خفتم عيلة : وإن خفتم فاقة وفقراً بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام[3] .

تنادي الآية الكريمة الذين آمنوا وتخبرهم بأن المشركين الذين يشركون مع الله تعالى غيره والذين يرتكبون هذا الذنب الذي لا يغفره الله تعالى ليسوا إلا نجساً وأذًى للنفس وقذًى للعين ، لسوء داخلهم وسوء خارجهم ، ولفساد باطنهم ونتن ظاهرهم فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا التاسع من الهجرة الذي بعث فيه المصطفى ﷺ أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الحج ، وبعث فيه عليًّا رضي الله تعالى عنه كي يقرأ عليهم في منى يوم الحج الأكبر وفي غير منى سورة التوبة ومنها هذه الآية الكريمة . لقد أمر المصطفى ﷺ عليًّا رضي الله عنه أن ينادي في الناس ألَّا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[4] وإنما لم يحج المصطفى ﷺ سنة تسع بسبب وجود المشركين ذاك العام في الحج .

ولما كان للحج إلى بيت الله تعالى الحرام الكثير من المنافع ومنها المادية ، وكان في منع المشركين من الحج منعٌ ضمنيٌّ لبعض الكسب في حق الذين يتاجرون في الحج وقد رفع الله سبحانه وتعالى عنهم الجناح في التجارة في أثناء أداء فريضة الحج ، وفي حق سكان المشاعر المقدسة الذين ينتفعون من أولئك المشركين ماديًّا في أثناء الحج ، فقد رفع الله سبحانه وتعالى

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني « نجس » ٤٨٣ .
(٢) تفسير الطبري ٧٥/١٠ .
(٣) تفسير الطبري ٧٥/١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٣٢/٢ .

خوف الفقر والفاقة بسبب غياب المشركين ووعد بأن يغنيهم جل وعلا من فضله إن شاء . إن الله سبحانه وتعالى هو العليم بكل شيء ، ومنها ما ينفع العباد ديناً ودنيا ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه وتدبيره وفي كل شيء .

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

ولا يدينون دين الحق : ولا يطيعون الله طاعة الحق . يعني أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام[1] .

حتى يعطوا الجزية : حتى يعطوا الخراج عن رقابهم الذي يبذلونه للمسلمين دفعاً عنها[2] إن لم يسلموا[3] وهي تدفع كل عام[4] .

عن يد : من يده إلى يد من يدفعه إليه . وكذلك تقول العرب لكل معطٍ قاهراً له شيئاً ، طائعاً له أو كارهاً : أعطاه عن يده وعن يد . وذلك نظير قولهم : كلّمته فماً لفم[5] أي بأيديهم لا يوكّلون بها[6] .

وهم صاغرون : وهم أذلاء مقهورون . يقال للذليل الحقير صاغر[7] .

حينما آنس المسلمون في مكة المكرمة قبل الهجرة القدرة في أنفسهم على القتال قال الله سبحانه وتعالى لهم كما جاء في سورة النساء[8] : ﴿ كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وحينما كان المسلمون في المدينة المنورة بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة قوةً ضاربةً أذن الله سبحانه وتعالى لهم بالقتال وذلك في السنة الثانية من الهجرة . والمعروف أن الدولة الإسلامية ولدت بهجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة . والمعروف أن سكّان الجزيرة

---

(١) تفسير الطبري ٧٧/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ٧٧/١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٧/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٧٧/١٠ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير الطبري ٧٧/١٠ .
(٨) الآية ٧٧ .

العربية آنذاك هم العرب المشركون . وبما أن الجزيرة العربية مهد الإسلام ، وعربها مادة الإسلام الأولى ، لذا فإن هؤلاء العرب المشركين لم يكن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف . والمعروف أن من معجزات المصطفى ﷺ أن شبه جزيرة العرب التي تعتبر أكبر شبه جزيرة في الدنيا قد اتحدت تحت لوائه ﷺ ربما لأول مرة في التاريخ ، وتحول سكانها من الشرك إلى التوحيد خلال بقائه ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة عشر سنوات لحق إثرها عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى . وقد تمت هذه المعجزة بأقل عدد من الشهداء والقتلى من الفريقين فقد كان عدد الشهداء والقتلى ألفاً وثمانية عشر شهيداً وقتيلاً(١) .

وبشأن غير عرب الجزيرة العربية من أهل الكتاب ومن غير أهل الكتاب أيضاً كانوا يدعون إلى الإسلام كي يكونوا إخوةً للمسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين فإن أصرُّوا على دينهم أمروا بدفع الجزية . وإن الآية الكريمة التي نحن بصددها تتحدث عن هذه الجزية التي تؤخذ من القوم في مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين ، وفي مقابل حماية المسلمين لهم . فإن عجز المسلمون عن حمايتهم فلا جزية . فإن أصرُّوا على دينهم وعلى عدم دفع الجزية أعلموا على رءوس الأشهاد بأنهم يعطون ثلاثة أيام يرون فيها رأيهم بالدخول في دين الإسلام أو في دفع الجزية وإلا فالقتال في اليوم الرابع . وإن الآية الكريمة التي نحن بصددها تتحدث عن القتال .

إن الآية الكريمة تأمر المسلمين لله رب العالمين بأن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد ربًّا ، والذين لا يؤمنون باليوم الآخر ولا يعملون من أجل ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود والذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ، والذين لا يدينون دين الحق ولا يعتنقون دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به محمد بن عبد الله ﷺ الدين الذي أكمله ورضيه لعباده وأتم به النعمة عليهم ، والذين لا يوحدون الله تعالى ولا يفردونه جل وعلا بالعبادة . إن عليهم أن يقاتلوا الذين تلك صفاتهم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، حتى يعطوا الجزية يداً بيد وهم صاغرون أذلة . إن رب العزة إنما ضرب عليهم الصغار والذلة حينما يعطون الجزية يداً بيد لحكمة جليلة وهي أن يحاولوا جاهدين التخلص من هذا الصغار باعتناق دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به محمداً ﷺ والذي لا يقبل جل وعلا من البشر ديناً سواه .

---

(١) انظر مثلاً ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ١٩٣ الطبعة الثالثة . ١٩٥٩م ١٣٧٩هـ مصر .

وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع . ولهذا تجهَّز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا[1] معه واجتمع من المقاتلة نحوٌ من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم . وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحرّ ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس[2] .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ
مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

يضاهئون : يشابهون[3] .
قاتلهم الله : لعنهم الله[4] .
أنّى يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق مع قيام الدليل[5] وكيف يضلّون عن الحق

(١) خرجوا ولم يبق منهم أحد .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٧/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٨/٢ والجلالين وتفسير الطبري ٧٩/١٠ .
(٤) تفسير الطبري ٨٠/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٤٨/٢ .
(٥) الجلالين .

وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل[1] وكيف يصدّون عن الحق ويحيدون عنه[2] .

اتخذوا أحبارهم : اتّخذ اليهود أحبارهم وهم العلماء[3] واحدهم حبر وحبر بكسر الحاء منه وفتحها[4] .

ورهبانهم : واتخذ النصارى رهبانهم وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم[5] وعبّادهم[6] .

قررت الآية الكريمة السابقة أن المشركين نجسٌ بسبب قذارة داخلهم وأعماقهم ولهذا نهوا عن دخول المسجد الحرام ، وليس المقصود بطبيعة الحال المسجد الحرام وحده وإنما المقصود مكة والحرم[7] وقد كان الحديث عن مشركي العرب توطئةً للحديث عن مشركي أهل الكتاب في هذه الآية الكريمة الأولى التالية . إن الآية الكريمة تقرر أن اليهود أتباع موسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى برسالة التوحيد يقولون إن عزيراً الذي آتاه الله تعالى علم التوراة[8] هو ابن الله ، وأن النصارى أتباع عيسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى برسالة التوحيد يقولون إن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو ابن الله : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذباً ﴾ وتقرر الآية الكريمة أن ذلك الزعم هو مجرد قول أفواه وأنه لا سند له ولا دليل عليه ، وأنهم بهذا الزعم يشابهون قول الذين كفروا من قبل من الآباء الذين أشركوا مع الله تعالى غيره فزعموا ذلك الزعم ، ومن غير اليهود والنصارى كمشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله والذين عطلوا عقولهم وأجابوا معتذرين عن إشراكهم مع الله تعالى غيره بأنهم وجدوا آباءهم على ملة وأنهم يهتدون بهديهم ويقتدون على آثارهم على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون من سورة الزخرف . إن الذنب الذي ارتكبه القوم والذي لا يغفره الله تعالى وهو الشرك يستحقون بسببه اللعن والطرد من رحمة الله تعالى وأن يمزقهم الله تعالى كل ممزق وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر وأن يقتلوا أو أن يختفوا

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٨٠ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٨٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٨٠ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/٨٠ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير الطبري ١٠/٧٤ .
(٨) انظر تفسير الطبري ١٠/٧٨ وتفسير ابن كثير ٢/٣٤٨ .

من الوجود لأنهم لا يحققون الهدف الذي خلقهم الله تعالى من أجله وهو إفراده جل وعلا بالعبادة .

وفي هذه الجزئية الأخيرة ﴿ أنى يؤفكون ﴾ تنكر الآية الكريمة عليهم في أسلوب الاستفهام أن يُصْرَفوا عن الحق بعد مجيئه ، إلى الباطل ، وعن الخير بعد تحققه ، إلى الشر . ولا شك أن بصائر القوم قد عميت والعياذ بالله .

وإن الآية الكريمة التالية تقرر أن اليهود اتخذوا علماءهم وهم الأحبار ، وأن النصارى اتخذوا رهبانهم وهم العبَّاد ، أرباباً من دون الله تعالىٰ بأن أطاعوهم في تحليل ما حرم الله تعالى وتحريم ما أحل الله تعالى ، وأن النصارى اتخذوا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام معبوداً لهم من دون الله تعالى فقال بعضهم : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[1] وقال بعضهم الآخر[2] : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[3] .

وعلى الفور تُكْذِبُهُم الآية الكريمة فتقرر أن اليهود والنصارى ما أُمِروا في التوراة والإنجيل على التوالي إلا ليعبدوا إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون ، وتنزَّه عما يقول المشركون .

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فتقدَّم عديٌّ إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طَيِّئ وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله ﷺ ، وفي عنق عدي صليبٌ من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتَّبعوهم ، فذلك عبادتهم إيَّاهم[4] .

---

(١) سورة المائدة ٧٢ .
(٢) سورة المائدة ٧٣ .
(٣) سورة الكهف ٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨ .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

بأفواههم : بكلامهم(١) .

تحدث السياق من ذي قبل عن المشركين من اليهود والنصارى وعرب الجاهلية ، ويتحول السياق إلى الحديث عن تآمر المشركين بمختلف فئاتهم على دين الإسلام من أجل القضاء عليه وإلى الحديث عن وعد الله تعالى ، ووعده بالحق ، بإظهار دين الإسلام على كل دين ولو كره المشركون .

إن الآية الكريمة تقرر أن الكافرين والمشركين من أعداء هذا الدين يريدون أن يطفئوا نور الله تعالى الذي بعث به محمداً ﷺ وأيده بمعجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، القرآن الكريم ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . وانظر إلى غباء هؤلاء المشركين حينما يحاولون أن يطفئوا بأفواههم ، وكأنهم بصدد سراج كليل ، وذُبال (فتيل) عليل ، وزيتٍ قليل ، كي يستجيب لهم السراج ، ويتفاعل معهم القنديل ، ويذهب بسبب الهواء الخارج من أفواههم ، والهراء الذي يسيل من بين شفاههم ، النور أو الضياء .

إن النور هنا نور منتشر بطبعه ، يهدي السائرين ، ويرشد الضالين ، ويأخذ بيد العباد إلى جنات النعيم . وانظر إلى لفظة نور التي تستعمل هنا وليس لفظة ضياء مثلاً . وإنَّا لنتذكر بهذه المناسبة قوله عز من قائل في سورة يونس(٢) : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصِّل الآيات لقوم يعملون ﴾ إن ما يصدر عن الشمس ضياءٌ لأن الشمس مصدر للطاقة . وإن ما يصدر عن نور القمر نورٌ لأن القمر يعكس ضياء الشمس نوراً فهو ليس مصدراً للطاقة . ومن أهم متعلقات النور أنه لا يأتي منه إلا الخير وحده ، ومن هنا جاء لفظ النور هنا ، وكيف لا يكون النور هنا خيراً محضاً وهو نور من الله تعالى ، ومن هنا جاء في وصف المصطفى ﷺ في

---

(١) تفسير الطبري ٨٢/١٠ .

(٢) الآية ٥ .

الآية الكريمة السادسة والأربعين من سورة الأحزاب بأنه سراج منير وليس بأنه سراج مضيء . قال تعالى[1] : ﴿ يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ إن الآية الكريمة تجمع للمصطفى ﷺ خير ما في كلٍّ من الشمس والقمر . إن الشمس مصدر هائل للطاقة ومن هنا جاء لفظ سراج الذي يدل على الشمس وعلى الحُسن في حقه ﷺ ، وإن القمر الذي يصدر منه النور وليد انعكاس ضياء الشمس عليه ، لا يصدر من نوره إلا الخير فنحن لم نسمع بضربة القمر ولكنا سمعنا بضربة الشمس ، ومن هنا جاء لفظ منير المرتبط بالقمر وصفاً للمصطفى ﷺ السراج المنير .

إن أعداء هذا الدين ، بمختلف فئاتهم يريدون أن يطفئوا نور الله تعالى بأفواههم وبكلامهم وبكذبهم وافتراءاتهم وهرائهم وبكل وسائل الكذب والاحتيال . وانظر إلى جملة « يريدون » التي تشير إلى التصميم والإرادة . والعجيب في حال أعداء هذا الدين أنهم دائماً لديهم هذه الإرادة والرغبة دون أن يستفيدوا من فشل أعداء الدين السابقين . وليس لذلك شيء من تعليل سوى عمى البصيرة والعياذ بالله . ولما كان الكفر ملةً واحدة ، وكانت إرادات الكافرين موصولة فقد كان في الآية الكريمة التنبيه إلى إرادة الله تعالى المضادة لإرادة أولئك الكافرين ، وإلى هزيمة هؤلاء الكافرين النّكراء كل مرة يريدون فيها إطفاء نور الله تعالى ، وإلى كره هؤلاء الكافرين لهذه الهزائم وإصرارهم على النصر ومن ثم معاودة الكرة . وهكذا تتكرر المحاولات وتتكرر الهزائم بعدد مرات المحاولات ، وهكذا تتكرر آلام الكافرين بعدد مرات المحاولات والهزائم .

والآية الكريمة التالية تبين بصريح اللفظ أن رب العزة هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى من الضلالة ، وقد قال تعالى[2] : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدًى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ إن رب العزة أرسل رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الكريم ، النور المبين ، والصراط المستقيم ، الذي يهدي للطريقة التي هي أقوم ، وبدين الإسلام ، الدين الحق الذي لا يقبل الله سبحانه وتعالى من عباده ديناً سواه .

إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ الرسول الخاتم ، بالهدى من

---

(١) سورة الأحزاب ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

(٣) سورة النساء ١٧٤ .

الضلالة ، والفرقان بين الحق والباطل ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وبدين الحق الذي يدمغ كل باطل ليظهره الله تعالى ويعليه وينصره على الدين كله ، السماوي وغير السماوي ، ولو كره المشركون الذين نصَّ عليهم السياق من ذي قبل والذين لم ينص عليهم . إن الله سبحانه وتعالى إنما بعث رسله من أجل نشر عقيدة التوحيد ، وإن هؤلاء المشركين يرتكبون الذنب الذي لا يغفره الله تعالى فكيف لا يخزيهم الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة ، ومن هنا كان وعد الله الحق بأن يظهر دين الإسلام الذي بعث به محمداً ﷺ على الدين كله ولو كره المشركون .

روى الإمام أحمد عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعزّ عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلًا يذل الله به الكفر . فكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي . لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز . ولقد أصاب من كفر منهم الذل والصغار والجزية[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٩ .

((عذاب آكلي أموال الناس بالباطل والصادِّين عن سبيل الله ومانعي الزكاة ومؤخري الأشهر الحرم والأمر بقال جميع المشركين))

الآيات (٣٤ ــ ٣٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

والذين يكنزون الذهب والفضة : الكنز هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته(١) .

ولا ينفقونها في سبيل الله : ولا يؤدون زكاتها(٢) .

يوم يحمى عليها : تدخل النار فيوقد عليها أي على الذهب والفضة التي كنزوها في نار جهنم . وكل شيء أدخل النار فقد أحمي إحماءً . يقال منه : أحميت الحديدة في النار أحميها إحماءً(٣) .

فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم : يحرق الله جباه كانزيها وجنوبهم وظهورهم(٤) .

فذوقوا ما كنتم تكنزون : فاطعموا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم حقوق الله وتكنزونها مكاثرةً ومباهاة(٥) .

تنادي الآية الكريمة الأولى الذين آمنوا وتقول لهم إن كثيراً من علماء اليهود وعباد النصارى ليأكلون أموال الناس بالباطل عن طريق الرِّشا والخداع والغصب والسرقة وما إلى ذلك ويصدون النَّاس عن سبيل الله تعالى وعن دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به خاتم النبيين

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٨٣ وتفسير ابن كثير ٢/٣٥٠ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٨٣ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٨٧ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٨٧ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/٨٧ .

وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، والذي لا يقبل الله سبحانه وتعالى ديناً سواه ، وذلك في مقابل ثمن رخيص من مال أو عرض من أعراض الدنيا أو جاه .

وبعد أن تحدثت الآية الكريمة عن تجار الدين تحدثت عن تجار الدنيا أو تجار المال الذين يكنزون الذهب والفضة وغير الذهب والفضة ، والذين لا ينفقونها في سبيل الله تعالى ولا يعطون حق الله تعالى فيها الذي فرضه للفئات الثمان التي تجوز عليها الزكاة . إن الآية الكريمة تبشّر كلًّا من الفريقين بعذاب أليم ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله تعالى ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤتون زكاة أموالهم .

والآية الكريمة الأخرى تخص بالحديث الذين لا يؤتون الزكاة لأنها تتعلق بالمؤمنين الذين يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والذين عليهم القيام ببقية أركان الإسلام الخمسة ومنها إيتاء الزكاة . إن هؤلاء الذين لا يؤتون زكاة أموالهم وفي مقدمتها النَّقدان ، الذهب والفضة ، سوف يُحْمَى يوم القيامة عليها في نار جهنم وسوف تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . وإن جملة « يُحْمَى » والجار والمجرور « عليها » يذكّرنا كل منهما بما جاء في سورة القصص[1] من جملة « أوقد » ومن جار ومجرور « على الطين » وذلك في قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غير فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صَرْحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ كما يذكّرنا بجملة « يوقدون » وبالجار والمجرور « عليه » في الآية الكريمة التي تتحدث عن المَثَلَيْن المائيّ والناريّ من سورة الرعد[2] قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السّيل زبداً رابياً . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاع زبدٌ مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزّبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

لقد جاء بشأن المعدن الذي يوضع في البوتقة التي توضع بدورها في النار والذي يوقد عليه وهو في النار ، وذلك فيما يتصل بالمثل الناري ، القول : ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ .

وجاء بشأن الطين الذي يوقد عليه كي يصير آجرًّا القول : ﴿ فأوقد لي يا هامان على

---

(١) الآية ٣٨ .

(٢) الآية ١٧ .

الطين ﴾ .

ومن البين حاجة كل من المعدن والطين إلى النار الشديدة كي يذوب المعدن وكي يتحول الطين آجرًّا ، ومن هنا كان النص على عملية الإيقاد . ومن البين اختلاف التعبيرين تبعاً لاختلاف المادتين . إن المعدن يوضع في بوتقة ، وتوضع البوتقة في النار ، ويوقد على المعدن في تلك البوتقة . وإن الطين توقد عليه النار مباشرة وتأتيه من حوله ومن خارجه .

ومع أن الذهب والفضة من المعادن ، فإنه لما كان الغرض في الآية الكريمة التي نحن بصددها يختلف عن غرض الآية الكريمة من سورة الرعد ، فليس المراد إذابة المعدن ولكن حَمْيُه ، ولما كان وجه الشبه كبيراً بين طريقة صنع الآجر وحمي المعدن ، فقد كان التعبير واحداً بشأن الإيقاد على الآجرّ والحمي على المعدن ، على حين كان التعبير عن الإيقاد على المعدن متميزاً .

والحقيقة أن القول « يحمى عليها » هو الذي يحدد كلًّا من طبيعة المعدن وطبيعة الهدف من الحمي عليه . أما طبيعة المعدن ، وهو هنا الذهب والفضة ، فإنهما لمَّا كانا من أكثر أنواع المعادن تفاعلاً مع النار وتجاوباً مع الحرارة ، لأنهما سريعا الذوبان ، فقد كان ثمة اكتفاءٌ بمجرّد الحَمْي . وأما طبيعة الهدف فإنه الكي . والمعروف أن الكي يشترط صلابة المعدن الذي يُكوى به وشدة حرارته . إن مجرد الحمي على الذهب والفضة كفيل بتحقيق كل ذلك ولهذا جاء في الآية الكريمة جملة « يُحْمَى » .

وكما راعنا جملة « يحمى » والجار والمجرور « عليها » راعنا ترتيب هذه الأجزاء الثلاثة من الجسد : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ إن السياق قدم الجزء الأَوْلَى والأشرف والأكثر إهانةً والأشد إيلاماً ، ثم ذكر الجزء الذي يليه فالذي يليه .

إن هؤلاء الذين يكوون يوم القيامة بمالهم الذي كنزوه يقال لهم ذوقوا عذاب ما كنتم تكنزون وعقاب ما كنتم تقصّرون في جنب الله تعالى .

جاء في صحيح البخاري[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له مالُهُ شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بِلِهْزِمتيه يعني بشِدْقيه يقول : أنا مالك أنا كنزك .

---

(١) صحيح البخاري ٤٩/٦ و ٨٢ .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

إن عدة الشهور : إن عدة شهور السنة(١) .

في كتاب الله : اللوح المحفوظ(٢) الذي كتب فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى(٣)

منها أربعة حرم : منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظّمهنّ وتحرّمهنّ وتحرّم القتال فيهن ، حتى لو لقي الرجل منهم فيهنّ قاتل أبيه لم يُهِجْه ، وهنّ رجب مضر ، وثلاثة متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٤) عن ابن عمر قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال : يا أيها الناس : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، أوّلهن رجب مضر ، بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم(٦) وإنما أضاف المصطفى ﷺ شهر رجب إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم(٧) وسمي المحرم بذلك لكونه شهراً محرماً ، ورجب من الترجيب وهو التعظيم ، وذو القعدة ، بفتح القاف وكسرها ، لقعودهم فيه عن القتال

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٨٨ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٨٨ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٨٨ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/٨٨ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٥٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٥ .

والترحال ، ويجمع على ذوات القعدة ، وذو الحجة ، بكسر الحاء وفتحها ، سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه ، ويجمع على ذوات الحجة[1] .

ذلك الدين القيم : هذا هو الشرع المستقيم[2] .

فلا تظلموا فيهن أنفسكم : عن ابن عباس : فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، في كلهن ، ثم خص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرماً وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم[3] .

كافة : جميعاً[4]

تقرر الآية الكريمة أن عدة شهور السنة عند الله تعالى وبإرادته جل وعلا اثنا عشر شهراً في كتاب الله تعالى وفي اللوح المحفوظ الذي كتب الله سبحانه وتعالى فيه كل ما هو كائن في قضائه إلى يوم الدين ، ومنذ أن خلق جل وعلا السماوات والأرض . ومن هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر حرم ، ثلاثة سرد هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد هو رجب . ذلك هو الدين القيم والشرع المستقيم . فلا تظلموا أيها الناس أنفسكم في كل الأشهر ، وبخاصة في هذه الأشهر الأربعة الحرم التي شاء الله تعالى لها أن تعظم . وقد عرفنا من معاني هذه الأشهر الأربعة بعض مظاهر تعظيمها للدرجة التي كان معها العرب الذين لا ينسون مطلقاً الأخذ بالثأر إذا رأى الواحد منهم قاتل أبيه في الأشهر الحرم لا يعرض له بسوء . وكما شاء الله تعالى أن يكون للزمان حرمة في هيئة هذه الأشهر الأربعة الحرم شاء مثل هذه الحرمة للمكان أعني الحرم الآمن والمسجد الحرام في مكة المكرمة . وقد جاء في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع بمنًى في أوسط أيام التشريق[5] أيضاً في تحريم مكة : إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة[6] .

بقي علينا أن نعرف أن حرمة المكان أي حرمة مكة باقية إلى يوم الدين . أما الأشهر

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٥٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٥ وتفسير الطبري ١٠/٨٩ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٨٩ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٩٠ والجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٣٥٥ .
(٥) أيام التشريق هي ثلاثة أيام بعد عيد الأضحى لأن لحوم الأضاحي تشرّق فيها .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٤ .

الحرم الأربعة فقد جرت سنَّة المسلمين أن يقاتلوا أعداء الله تعالى في الأشهر الحرم وفي غيرها[1] .

وتأمر الآية الكريمة المسلمين أن يقاتلوا المشركين جميعاً كما يقاتلهم المشركون جميعاً وأن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى مع المتقين ، الذين يراقبون الله تعالى في السر والعلن بفعل الأوامر واجتناب النواهي .

بقي علينا أن نعرف أن هذه الآية الكريمة تمثل المرحلة الثالثة من مراحل الجهاد أو القتال .

في المرة الأولى بعد الهجرة نزل قوله تعالى في سورة الحج[2] : ﴿ أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرنّ الله من ينصره . إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور ﴾ .

وفي المرة الثانية كان الأمر بقتال الذين يقاتلون المؤمنين . جاء في سورة البقرة[3] قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

وفي المرة الثالثة كان الأمر بقتال المشركين كافة وذلك في الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة التوبة . ويلحق بذلك الأمر بقتال كافري أهل الكتاب في الآية الكريمة التاسعة والعشرين من هذه السورة الكريمة .

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ١٦٥ هامش ٢ وتفسير ابن كثير ٤/٢ وهذا هو رأي الجمهور .

(٢) الآيات ٣٩ ــ ٤١ .

(٣) الآية ١٩٠ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

إنما النسيء زيادةٌ في الكفر : ما النسيء إلا زيادةٌ في الكفر[١] والنسيء بمعنى التأخير لحرمة شهر إلى آخر لما كانت الجاهلية تفعله[٢] والمعنى : إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة وتصييرهم الحرام منهن حلالاً والحلال منهن حراماً[٣] عن ابن عباس قال : إن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يُكْنَى أبا ثُمامة فينادى : ألا إن أبا ثُمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا إنَّ صَفَر العام الأول ، العام حلال ، فيحلّه للناس فيحرم صفراً عاماً ويحرم المحرم عاماً فذلك قول الله : إنما النسيء زيادة في الكفر[٤] .

ليواطئوا عدة ما حرم الله : ليوافقوا عدد ما حرم الله من الأشهر[٥] .

تقرر الآية الكريمة أن تأخير مشركي العرب حرمة شهر من الأشهر الأربعة الحرم إلى شهر آخر كما يفعلون مع شهر المحرم حينما يحلونه عاماً ويحلون شهر صفر بدلاً منه ، وذلك حينما تطول بهم فترة الانتظار لاستئناف القتال خلال الأشهر الحرم الثلاثة المتتابعة ، ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ، تقرر أن التأخير والنسيء ليس إلا زيادةً في كفر مشركي العرب إلى كفرهم المتمثل في عبادة الأوثان . إن الذين كفروا يُضَلّون بهذا التأخير لحرمة بعض الأشهر بتحليل الشهر الحرام عاماً وبتحريمه عاماً ، ليوافقوا من حيث العدد ما حرم الله تعالى من الأشهر ، فيحلوا ما حرم الله تعالى من شهر ومن دم . إن هؤلاء الكافرين زيَّن لهم الشيطان الرجيم ونفوسهم الأمَّارة بالسوء سوء أعمالهم ، ومنها تأخير حرمة بعض الأشهر . وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن الله سبحانه وتعالى لا يهدي القوم الكافرين ولا يوفقهم لخير ولا يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل .

---

(١) تفسير الطبري ٩١/١٠

(٢) الجلالين وتفسير الطبري ٩١/١٠ .

(٣) تفسير الطبري ٩١/١٠

(٤) تفسير ابن كثير ٣٥٦/٢ .

(٥) تفسير الطبري ٩١/١٠ والجلالين .